خطبة صلاة الجمعة 7/ 8/ 2015 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(حفظ الكلمة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِخَيْرٍ يُمْتَثَلُ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَبُ).

روى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**مَا مِنْ شَيءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيبلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِب الصَّوم وَالصَّلاةِ**» [الترمذي].

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة الرابعة والعشرون في سلسلة خطب عنوانها (**فضيلة... أخلاق تعاملية**)، بإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لايليق بمثلك. وهذا هدف السلسلة.

عنوان خطبة اليوم: (**حفظ الكلمة**)

إنَّ من كرامة الإنسان على الرحمن أن علَّمه كيف يُفْصِحُ عمَّا في جَنَانِه بلسانه ﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 1 – 4].

وجعل إفصاحه مُرَاقبَاً ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]، ليحفظَ المرءُ كلمَتَه، ولينالَ بالكلمة الطيبة خيراً، وليُجزى بغيرها الجزاء الأوفى.

وحفظُ الكلمة خلقٌ من الأخلاق الشخصية والتعاملية، فكم من كلمةٍ أشعلت ناراً ؟ وكم من كلمة أطفأت أواراً ؟

بحفظِ الكلمة يتدرَّب المرءُ على نُطق الكلمةِ التي ينبغي أن يقولها، ويتدرب كيف يقولها ومتى يقولها، وبه يتدرب المرء على كتم الكلمة التي ينبغي ألا يذيعها.

ومراراً ما سَعد أناسٌ بألفاظهم، ومراراً ما سقط أناسٌ بكلماتهم. وقديماً قالوا: إنما الناس بألسنتهم.

قرأتُ في كُتُبِ التراجم عن رجال قال واحدهم: (منذ ثلاثين سنة ما تكلمت بكلمة أحتاج أن أعتذر منها).

وقال آخر: (ما تكلمت منذ خمسين سنة بكلمة أريد أن أعتذر منها).

قال عبد الله بن المبارك: قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة، ما سمعته يغتاب عدواً له قط، فقال: هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يُذهبها.

إنه خلق حفظِ الكلمة.

- يختصم شريك مع شريكه فيتكلم في حقه بكلام فيه من الكذب والبذاءة والغيبة والعيب ما الله به عليم، ومثل ذلك تفعل زوجة حردانة من زوجها، والعجب أنهما يعودان يوماً إلى الصلح لتصفَه بأحسن الصفات وتنعته بأجمل النعوت.

إنه الاستهتار بالكلمة.

أيها الإخوة:

إنَّ مما يُعاب في كلام المرء أن يغتاب أو ينم أو يكذب أو يحلف بغير الله أو يسب أو يسخر، وقد جمع بعض العلماء العيوب الأخلاقية للكلمة فزادت بجمعه عن المائة، وها أنا أعرض عليكم شيئاً مما ذكر لنحفظ كلامنا منه.

1- **الكذب**: كان إبراهيم النخعي إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار، قال للجارية: قولي له اطلبه في المسجد، ولا تقولي له ليس هاهنا كيلا يكون كذباً.

يقول عليه الصلاة والسلام: «**يُطْبَعُ المؤمنُ على الخِلال كلها إلا الكذب والخيانة**». [أحمد]

2-**اللغو**: وهو الكلام الذي لايضر ولاينفع، والمؤمنون عن اللغو معرضون، وإذا مروا باللغو مروا كراماً.

حُكي عن بعض الحكماء أنه رأى رجلاً يُكثر الكلام ويُقل السكوت، فقال: إن الله تعالى إنما خلق لك أذنين ولسانا واحداً، ليكون ما تسمعه ضِعْفَ ما تتكلم به.

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: (أَنْصِف أذنيك من فِيْكَ، فإنما جعل لك أذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تتكلم به) [أحمد].

3-**عيب العلماء**: روى الربيع بن صبيح أن رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد إني أرى أمراً أكرهه.

قال: وما ذاك يا ابن أخي، قال: أرى أقواماً يحضرون مجلسك يحفظون عليك سَقْطَ كلامك ثم يحكونك ويعيبونك، فقال: يا ابن أخي: لا يكبرنَّ هذا عليك، إنه لو سَلِمَ من الناس أحدٌ لسَلِمَ منهم خالقُهم الذي خلقهم، فإذا لم يسلَم مَنْ خَلَقَهم فالمخلوق أجدر ألا يَسْلَم.

قال الإمام النووي في التبيان في آداب حملة القرآن: قال الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله: (اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحومَ العلماء مسمومة وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم).

4- **النميمة**: قال رجل لعمرو بن عبيد: إن الأسواري مازال يذكُرك في قصصه بشرٍ، فقال له عمرو: يا هذا، ما رعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقي حين أعلمتني عن أخي ما أكره، ولكن أعلمه أن الموت يعُمُّنا والقبر يضمُّنا والقيامة تجمعنا، والله تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين.

روي عن عمر بن عبد العزيز أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئاً، فقال له عمر: إن شئت نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: 6] وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: 11] وإن شئت عفونا عنك ؟ فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبداً.

5- **الغيبة**: اغتاب رجل عند معروف الكرخي فقال له: اذكر القطن إذا وُضع على عينيك.

روي عن الحسن أن رجلاً قال: إن فلاناً قد اغتابك، فبعث إليه طبقاً من الرُّطب، وقال: بلغني أنك أهديت إليّ حسناتك، فأردت أن أكافئك عليها، فاعذرني، فإني لا أقدر أن أكافئك بها على التمام.

عن أبي موسى رضى الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ! أيُّ المسلمين أفضل ؟ قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**» [متفق عليه].

6- **التدخل فيما لا يعنيك**: رُؤي بعض الأكابر من أهل العلم في النوم فسُئل عن حاله، فقال: أنا موقوف على كلمه قُلتُها، قُلتُ: ما أحوج الناس إلى غيث، فقيل لي: وما يدريك ؟ أنا أعلم بمصلحة عبادي.

قال عمر بن عبد العزيز: من علم أن كلامه من عَمَلِهِ، قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه.

7- **بذاءة اللسان**: وهي أن تسمي الأشياء المستقبحة بأسمائها الصريحة، «**الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاءة من الجفاء . والجفاء في النار**». [الترمذي]

«**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**» [الترمذي]

يقول الأحنف بن قيس: (ألا أخبركم بأدوء الداء ؟ اللسان البذيء والخلق الدنيء).

8- **السَّبُّ**: قال عاصم بن أبي النجود: ما سمعت أبا وائل شقيق بن سلمة سبَّ إنساناً قط ولا بهيمة.

وقال المثنى بن الصباح: لبث وهب بن منبه أربعين سنة لم يسبَّ شيئاً فيه روح.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**» [متفق عليه].

وعن عياض قال: قلت: يانبي الله ! الرجل يشتمني وهو دوني، أعليّ من بأس أن أنتصر منه؟ قال: « **المُستبَّان شيطانان يتهاتران، ويتكاذبان** » [ابن حبان].

9- **اللَّعن**: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لعن المؤمن كقتله**» [متفق عليه].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا يكون المؤمن لعاناً**» [الترمذي].

«**لا تلاعنوا بلعنة الله، ولا بغضبه ولا بالنار**» [أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح].

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن تأخر منازل اللَّعانين يوم القيامة فقال: «**لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة**» [رواه مسلم].

وقال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: (كنا إذا رأينا الرجل يلعن أخاه، رأينا أنه أتى باباً من الكبائر).

كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: (إنَّ أبغض الناس إلى الله كلُّ طعَّان لعَّان).

أيها الإخوة:

هذا شيء مما ذكر في حفظ الكلمة، ولكن كيف يحفظ أحدنا كلامه حتى يكون قوله له لا عليه، وحتى يرقى بكلامه ويعلو بقوله؟

ثلاثة أمور تعينك على حفظ الكلمة:

أولها: الإكثار من ذكر الله: ذلك لأن الذكر يجعلك قريباً من المذكور فإذا صرت قريباً من الله تعالى دخلت في حال المراقبة، عندها لن يستطيع لسانك النطق بما لايحل ولن يستطيع ضميرك الحديث بما لايجمل، فتتحقق بمقام: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]، وبمقام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 46].

عن حاتم الأصم قال: لو أن صاحب خير جلس إليك لكنت تتحرز منه، وكلامك يُعرض على الله فلا تتحرز منه.

ثانيها: كثرة الصمت: فالحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت، والصمت حكمة وقليل فاعله، عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليسكت»** [البخاري ومسلم].

قال النووي: (هذا صريح أنه ينبغي أن لا يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً، وهو الذي ظهرت مصلحته، ومتى شك في ظهور المصلحة فلا يتكَّلم) [رياض الصالحين].

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: (والله الذي لا إله إلا هو، ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان) [أخرجه ابن أبي عاصم].

ثالثها: صحبة من يحسنون الكلمة ويحفظونها: لأن من جالس جانس.

إذاً: هي ثلاثة: الذكر والصمت والصحبة.

والحمد لله رب العالمين